المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث
العدد الثالث – المجلد الرابع
سبتمبر 2018 م
ISSN: 2518-5780

المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث
Arab Journal of Sciences & Research Publishing
AJSRP

السواد في شعر المتنبي - دراسة سيميائية -

مي بنت إبراهيم المحيميد
جامعة الملك سعود || المملكة العربية السعودية

الملخص: تبحث هذه الدراسة في ظاهرة السواد في شعر المتنبي، وأسبابها، ودلالاتها اللغوية، وقد اتبعت الباحثة المنهج السيميائي في تحليل الخطاب الشعري، وتوصلت الدراسة لنتائج أهمها:

1- أن معاني السواد تختلف عند المتنبي من حقبة لأخرى.

2- أن المتنبي جعل من اللون الأسود رمزًا يبطن خلفه معانٍ مختلفة.

الكلمات المفتاحية: السواد، المتنبي، الشعر العربي.

المقدمة:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على رسوله الذي اصطفى ﷺ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، وبعد:

يسعدني أن أقدم هذا البحث: (السواد في شعر المتنبي، دراسة سيميائية)، وهو عنوان واسع فضفاض، متعدد المشارب والأغراض، جدير بالدراسة والتحليل، والعرض والتدليل، لما للمتنبي من مكانة خاصة في جميع عصور الشعر وأزمنته، منذ عصره وحتى يومنا هذا، لاسيما أنه من أكثر الشعراء الذين اختلف الناس في شعرهم، وجعلوه قضيتهم وهمهم، ولما لعنصر اللون من أهمية في الدراسات الحديثة، حيث بدأ الدارسون يلتفتون إلى تتبع الألوان ودلالاتها، وعلى ماذا كانت تدل في العصور السابقة، وغالبًا يتفق الشعراء في دلالات الألوان إذا كانوا من مجتمع واحد، وفي عصر واحد.

وما دعاني لاختيار هذا الموضوع بالذات، هو رغبتي في دراسة اللون بصفته ظاهرة في شعر المتنبي، خاصة حين لاحظت أن اللون الأسود جاء بكثرة في ديوانه، لا سيما أن الدراسات في اللون لا تزال في تجديد مستمر، ولا بد من خوض التجربة في هذا المجال، حتى وإن كانت التجربة لا توازي ما توصل له الآخرون، لكنها بمثابة البداية للانطلاق والتوسع في الدراسة.

ولأن المتنبي حالة خاصة، فهو مُخْتَلِفٌ ومُخْتَلَفٌ فيه، آثرت أن تكون دراستي عنه، علّي أن أستفيد مما توصل إليه الدارسون، وأضيف إليه ما أراه في عنصر اللون الأسود عند شاعرنا، لذا فضلت اختيار شعر المتنبي، لأغوص في أعماق ذلك الشاعر، وأحاول استخلاص الدرر من ذلك البحر.

أما ما يخص الدراسات السابقة المتصلة بعنوان بحثي، فسأذكر أبرزها وما تتحدث عنه:

1- كتاب: عنصر اللون في شعر المتنبي، تأليف الدكتور عبد الله أحمد باقازي؛ تحدث فيه عن الألوان في شعر المتنبي وأفرد لكل لون مساحة خاصة وذكر الشواهد على ذلك، ثم أفرد لكل لون مرة أخرى ما يشير إليه في شعر المتنبي، ثم تمازج الألوان فيما بينها، وهو أكثر كتاب رجعت إليه في هذا البحث.

2- دلالة الألوان في شعر المتنبي، عيسى متقى زاده وخاطره احمدي، في مجلة إضاءات نقدية، وذكرا فيه دلالات الألوان عند المتنبي وإيحاءاتها.

3- اللون في شعر المتنبي، علي حسن محمد، "رسالة جامعية في جامعة الموصل".

وسأعتمد في بحثي هذا على أداتين من الأدوات الإجرائية في المنهج السيميائي، وهما: التشاكل والتباين، فـ"**التشاكل**" هو التشابه أو "كل ما استوى من المقومات الظاهرة المعنى، والباطنة، والمتمثلة في التعبير أو الصياغة؛ وتأتي متشابهة مرفولوجيًا، أو نحويًا، أو إيقاعيًا، أو تراكبيًا، عبر شبكة من الاستبدالات والتباينات؛ وذلك بفضل علاقة سياقية تحدد معنى الكلام"[1]. **والتباين** هو الاختلاف والتقابل[2]. وأحاول هنا دراسة التشاكل والتباين من النواحي الدلالية والتركيبية.

ومنهجيتي في بحثي كانت على النحو التالي:

1- المقدمة: وتحدثت فيها عن سبب اختياري لعنوان البحث، وأبرز الدراسات السابقة.
2- التمهيد: نبذة عن حياة المتنبي وشعره.
3- المبحث الأول: التشاكل والتباين الدلالي:
   - دلالة المدح.
   - دلالة الذم.
4- المبحث الثاني: التشاكل والتباين التركيبي.
5- الخاتمة.
6- ثبت المصادر والمراجع.
7- الفهرس التحليلي للموضوعات.

ولا أزعم أنني حللت هذه الظاهرة تحليلًا كاملًا، لأن ذلك يحتاج وقتًا أطول وحديثًا أكثر، لكنني حاولت قدر المستطاع أن أستفيد وأقدم شيئًا جديد، خاصة أنني اخترت هذا البحث عن رغبة شخصية، وأرجو أن أكون قد وفقت في طرح ما يتناسب وهذا العنوان الكبير، وأشكر كل من ساعدني وأرشدني في هذا البحث بلا استثناء.

وأسأل الله التوفيق.

التمهيد:

نبذة عن حياة المتنبي وشعره:

ملأ الدنيا وشغل الناس، حتى اختلفوا في نسبه وشعره ولقبه وفي كل ما يتعلق به، فأصبح الشغل الشاغل للدارسين منذ عصره وحتى يومنا هذا.

اسمه وحياته: أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أبو الطيب المتنبي: الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. وفي علماء الأدب من يعده أشعر الإسلاميين. ولد بالكوفة في محلة تسمى (كندة) وإليها نسبته، سنة ثلاث وثلاثمئة[3].

" وقيل: هو أحمد بن الحسين بن مرة ابن عبد الجبار، والله أعلم.

---

(1)عبد الملك مرتاض، التحليل السيمائي للخطاب الشعري " تحليل بالإجراء المستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي"، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص19.

(2) انظر: المرجع السابق، ص: 20، 21.

(3) انظر الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين الزِرِكْلي، 115/1، دار العلم للملايين، ط15، 2002م.

قدم الشام في صباه وجال في أقطاره، واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها، وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها، ولا يُسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر، حتى قيل: إن الشيخ أبا علي الفارسي، صاحب " الإيضاح" و " التكملة"، قال له يومًا: كم لنا من الجموع على وزن فِعْلَى؟ فقال المتنبي في الحال: حِجْلى وظِربى؛ قال الشيخ أبو علي: فطالعتُ كتب اللغة ثلاث ليال عَلِّي أن أجد لهذين الجمعين ثالثًا، فلم أجد. وحسبُك من يقول في حقه أبو علي هذه المقالة."[4]

" وهب الله هذا الذكي المرهف الحس جدة حازمة، كانت توقد في قلبه نيران الثورة، وتدربه على كرائم الخلق، كالصدق والأمانة والوفاء" [5]

" كان هذا الفتى يمشي في نواحي الكوفة، ينتقل في حوانيت الوراقين، يقرأ ما يقع بين يديه من الكتب، ويختلف إلى مجالس الأئمة يستمع العربية والفقه والجدل، وينظر متعجبًا إلى الحوادث التي تقع بين ظهراني قومه، ويستمع إلى ما ترد به الأنباء من أخبار الدولة المترامية الأطراف."[6]

ثم التحق بالأمير سيف الدولة بن حمدان في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، ونال حظوة عنده، وأصبح مقربًا منه، ولكن كما هي عادة الوشاة دائمًا فقد أكثروا الوشاية عليه، حتى ظن أن سيف الدولة قد تغير عليه، ولم يعد يهتم به كما في السابق، لاسيما أن المتنبي كان شديد الحساسية والتوجس، [7] " وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء كل ليلة فيتكلمون بحضرته، فوقع بين المتنبي وبين ابن خالويه النحوي كلامٌ، فوثب ابن خالويه على المتنبي فضرب وجهه بمفتاح كان معه، فشجه وخرج دمه يسيل على ثيابه، فغضب وخرج إلى مصر وامتدح كافورًا.

ولما لم يرضه هجاه وفارقه ليلة عيد النحر سنة خمسين وثلاثمائة، ووجه كافور خلفه رواحل إلى جهات شتى فلم يلحق، وكان كافور وعده بولاية في بعض أعماله، فلما رأى تعاليه في شعره وسموه بنفيه خافه، وعوتب فيه فقال: يا قوم، من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم، أما يدعي المملكة مع كافور.؟ فحسبكم.

ثم رحل عنه وقصد بلاد فارس، ومدح عضد الدولة بن بويه الديلمي، فأجزل جائزته، ولما رجع من عنده قاصدًا إلى بغداد ثم إلى الكوفة في شعبان لثمان خلون منه عرض له فاتك بن أبي الجهل الأسدي في عدة من أصحابه، وكان مع المتنبي - أيضًا- جماعة من أصحابه، فقاتلوهم، فقُتل المتنبي وابنه محمد وغلامه مفلح بالقرب من النعمانية، في موضع يقال له الصافية، من الجانب الغربي من سواد بغداد عند دير العاقول بينهم مسافة ميلين.

وذكر ابن رشيق في كتاب " العمدة" في باب منافع الشعر ومضاره أن أبا الطيب لما فرّ؛ حين رأى الغلبة قال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار أبدًا وأنت القائل:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والحرب والضرب والقرطاس والقلم[8]

فكرَّ راجعًا حتى قُتل، وكان سبب قتله هذا البيت،[9] وذلك يوم الأربعاء لست بقين – وقيل: لثلاث بقين، وقيل: لليلتين بقيتا- من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وقيل إن قتله كان يوم الاثنين لثمان بقين من شهر رمضان، وقيل: لخمس بقين من شهر رمضان من السنة المذكورة." [10]

---

(4) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، حققه: الدكتور إحسان عباس، 1 /120، دار صادر/ بيروت.

(5) المتنبي رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود شاكر، ص 191، مطبعة المدني- مصر، 1407هـ- 1987م.

(6) المرجع نفسه، ص 196.

(7) انظر المرجع نفسه، ص70، (بتصرف).

(8) ديوان المتنبي شرح أبي الحسن علي الواحدي، ط/ برلين، أعادت طباعته مكتبة المثنى ببغداد 1861م، ص 484.

ويستنتج محمود شاكر في كتابه (المتنبي): بأنه كان يحب خولة أخت سيف الدولة، منذ كان أبو الطيب في جوار سيف الدولة، واستمر هذا الحب وظهر جليًا في شعره حتى بعد فراقه، واتصاله بكافور، بل إلى أن قتل. [11]

سبب تسميته بالمتنبي: " تنبأ في بادية السماوة (بين الكوفة والشام) فتبعه كثيرون، وقبل أن يستفحل أمره خرج إليه لؤلؤ (أمير حمص ونائب الإخشيد) فأسره وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه."[12]

شعره: قال الشعر صبيًا فمن أول قوله في الصبا:

أبلى الهوى أسفا يوم النوى بدني وفرق الهجر بين الجفن والوسنِ [13]

"والناس في شعره على طبقات: فمنهم من يرجحه على أبي تمام ومن بعده، ومنهم من يرجح أبا تمام عليه."[14]

يقول الثعالبي في (يتيمة الدهر): "فليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر أبي الطيب من مجالس الإنس ولا أقلام كتاب الرسائل، أجرى به من ألسن الخطباء في المحافل، وقد ألفت الكتب في تفسيره، وحل مشكله وعويصه، وثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه، وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه، والإفصاح عن أبكار كلامه وعونه."[15]

والناس منذ عصر قديم ولوا جميع الأشعار صفحة الإعراض مقتصرين منها على شعر أبي الطيب المتنبي نائين عما يروى لسواه وإن فاته وجاز في الإحسان مداه وليس ذلك إلا لبختٍ اتفق له فعلًا فبلغ المدى وقد قال[16]:

هو الجدُّ حتى تفضل العين أُختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

أما القاضي أبو الحسن فإنه ادعى التوسط بين صاغية المتنبي ومحبيه وبين المناصبين له ممن يعاديه فذكر أن قومًا مالوا إليه حتى فضلوه في الشعر على جميع أهل زمانه وقضوا له بالتبريز على أقرانه وقوما لم يعدوه من الشعراء وأزروا بشعره غاية الإزراء حتى قالوا أنه لا ينطق إلا بالهراء ولا يتكلم إلا بالكلمة العوراء ومعانيه كلها مسروقة أو عور وألفاظه ظلمات وديجور فتوسط بين الخصمين وذكر الحق بين القولين.[17]

ويقول عن فلسفته في شعره: " وإنما تجد له المعنى الذي لم يسبقه الشعراء إليه إذا دقق، فخرج عن رسم الشعر إلى طريق الفلسفة"[18]

أما ديوان شعره فشُرح شروح وافية، وقد جمع الصاحب ابن عباد لفخر الدولة (نخبة من أمثال المتنبي وحكمه)؛ وتبارى الكتّاب قديما وحديثا في الكتابة عنه، فألف الجرجاني (الوساطة بين المتنبي وخصومه)، والحاتمي

---

(9) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، 75/1، دار الجيل، ط5، 1401هـ- 1981م.

(10) انظر وفيات الأعيان. ص 122، 123.

(11) انظر المتنبي لمحمود شاكر، ص 69.

(12) الأعلام ص 115.

(13)شرح ديوان المتنبي للواحدي، ص5.

(14) وفيات الأعيان، 121/1.

(15) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي، 140/1، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

(16) الديوان ص 532.

(17) انظر المصدر نفسه ص3.

(18) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ص160، المكتبة العصرية- بيروت، ط1، 1427هـ- 2006م.

(الرسالة الموضحة في سرقات أبي الطيب وساقط شعره)، والبديعي (الصبح المنبي عن حيثية المتنبي)، والصاحب ابن عباد (الكشف عن مساوئ شعر المتنبي)، والثعالبي (أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه)، والمتيم الأفريقي (الانتصار المنبي عن فضل المتنبي)، وعبد الوهاب عزام (ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام)، وشفيق جبري (المتنبي)، وطه حسين (مع المتنبي)، ومحمد عبد المجيد (أبو الطيب المتنبي، ما له وما عليه)، ومحمد مهدي علام(فلسفة المتنبي من شعره)، ومحمد كمال حلمي (أبو الطيب المتنبي)، ومثله لفؤاد البستاني، ولمحمود محمد شاكر، ولزكي المحاسني.[19]

واشتهر المتنبي بسيفياته وكافورياته، أما السيفيات فهي القصائد التي قالها في سيف الدولة، بينما الكافوريات هي قصائده في كافور، وللون في هذه القصائد حالة خاصة، لاسيما اللون الأسود، مما يتطلب الوقوف عند ذلك بالدراسة والتأمل، حيث لا يقتصر السواد في هذه القصائد فقط، بل يتعداها إلى أغراض أخرى، أبرزها الفخر.

المبحث الأول: التشاكل والتباين الدلالي:

تردد ذكر اللون الأسود عند المتنبي، وكان في كل مرة يرتبط بغرض أو دلالة، فيأتي حينًا بذم وحينًا بمدح وحينًا آخر بفخر، كما يأتي بدلالات مختلفة.

لم يكن السواد محورًا رئيسًا في الأغراض الشعرية عند المتنبي، عدا في كافورياته مدحًا كان ذلك أم هجاءً، أما ما عدا ذلك فقد كان عارضًا، يناسب المقام الذي قيل فيه.

بل حتى في مدائحه لكافور التي أجمع الكثيرون على أنها مبطنة بهجاء لم يكن السواد فيها محورًا رئيسًا، كما هو في هجائه له، ولم يكن عارضًا، وإنما كان بين هذه وتلك. فقد تحدث فيها المتنبي عن سواد كافور، وأنه ليس عيبًا فيه، لكنه لم يكن ركنًا رئيسًا في القصيدة أو المحور الذي تقوم عليه.

ولم تكن ثمة مشكلة بين المتنبي والسواد، فقد كان لونًا عابرًا كغيره من الألوان، حتى التقى المتنبي بكافور، فأصبح هذا اللون يمثل هاجسًا له، في البداية كان هاجس الحذر، فهو لا يعلم كيف يمدح هذا الأسود الغريب وهو العربي الأصيل، الذي يعتز بعروبته، فكان مدحه لكافور حذرًا، فيه شيء من التحفظ، فلم تأتِ مدائحه بالشكل الذي كانت عليه حين يمدح سيف الدولة، بل كان فيها نوعٌ من التحفظ خشية ألا يتحقق مطلبه بالولاية، فيخسر الولاية ويخسر ثقته في شعره، فما كان منه إلا أن قام بتدبيج قصائده المدحية في كافور بشتى الألوان والصور والمعاني، التي تؤول أكثر من تأويل، ليرضى عن نفسه أولًا، ويرضى عنه الناس إن فهموا مغزاه، لذلك كان يستحضر بعضًا من المعاني الدالة على السواد في مدحه، ويصرح فيها.

لكن هذه الحيل لم تنطل على كافور الذكي الحاذق، وعلم أن المتنبي إنما هو طامع لا أكثر، ولم يحقق للمتنبي ما يطمح إليه، وأصبح المتنبي كالأسير عنده، فضاقت عليه الأرض بما رحبت، حتى هرب منه، وهجاه، فأصبح السواد يمثل هاجسًا للمتنبي، هاجس الكره والحقد والخوف في آن واحد.

ويتضح ذلك من خلال هذين الغرضين: المدح، والهجاء.

(19) الأعلام ص 115.

- **دلالة المدح:**

المتنبي لا يمدح من فراغ، فإما أن يمدح طلبًا لعظيم، أو أن يمدح لمحبة جمة، فها هو حين" رغب أبو محمد المهلبي وزير معز الدولة بن بويه أن يمدحه بشعره لم يجبه لما رأى من استهتاره فأغرى به المهلبي جماعة من شعراء العراق فأهانوه، فأعرض عنهم المتنبي."[20]

لذلك هو حين لا يرى من ممدوحه تجاوبًا معه، وتحقيقًا لمطالبه، فإنه ينقلب عليه، خاصة بعد أن كان مدحه لسيف الدولة صادقًا، لكنه خيب أمله، ولم يحقق له ما كان يطمح إليه، فكأن المتنبي ندم على مدائحه التي خلدها التاريخ، ولم يخلد معها أنه نال ولاية قط، مما جعل المتنبي أكثر حذرًا في مدائحه التالية لكافور، فكان يضمنها بشيء من الرمز، أو المعاني الخفية، تحسبًا لعدم تحقيق مطالبه، وإن حصل ذلك فإنه يقلب الطاولة على ممدوحه ليخبر أن ما قاله فيه ليس مدحًا حقيقيًا.

"كان أبو الطيب يعبث بممدوحه حين لا يستحوذ الممدوح على إعجابه، فيغالي بالمعنى ويخرج به عن حد المعقول، على أنه لم يكن يلجأ إلى هذا الرمز إلا لماما، وأغلبه في الكافوريات"[21]. لكن ما علاقة السواد بغرض المدح؟ هل كان السواد رئيسًا أم عارضًا؟

كان اللون الأسود في الحقيقة لونًا كغيره -كما أسلفت-، لكن فيما بعد وفي مدائحه لكافور ألحظ أن ثمة صراع بين اللونين الأبيض والأسود، وهو يحاول تغليب الأبيض على الأسود لحاجة ما في نفسه.

فلا أرى أن هناك معنى خفيّاً حينما يذكر السواد في مدحه لسيف الدولة، لأنه يرى في سيف الدولة أنموذجًا عربيًا مثاليًا فهو حين التقى بسيف الدولة الحمداني، "وجد فيه فارسًا كان يتوق أن يكونه، وعربيًا ينافح عن حواشي الأقاليم العربية التي نساها ملوك وخلفاء العصر، فأكبر فيه تلك الروح"[22].

والذي أراه أن المتنبي إنما يمدح الممدوح بصدق، لكنه صدق ممزوج بحذر، فمثلًا في مدائحه لكافور، أشعر وكأن المتنبي وهو يكتب القصيدة يدخل فيها معانٍ للسواد، ليجعلها حجة على الممدوح إن لم يحقق مبتغاه له، فيكثف فيها معاني السواد المبطنة والواضحة، وكأنه يقول للنقاد الذين تولوا شعره في عصره: إنه لا يهمه أن يكون شعره مدحًا أو هجاءً، بل يهمه أن يحقق غايته، فهو شاعر، سيخلد التاريخ شعره، لكنه لن يخلد العطايا والهبات، لذلك كان يطمح بوزارة تحفظ تاريخه، ولو حقق له كافور ذلك، لما قال المتنبي هجاءً في كافور، ولما توصل النقاد إلى أن مدائحه مبطنة بهجاء، لكن لأن كافور كان ذكيًا - أيضًا- ، وخشي على نفسه من المتنبي، لم يحقق له ما يريد، فأخذ أبو الطيب يذم سواده، وينعته بالعبد، وما إلى ذلك.

التشاكل والتباين الدلالي:

يحصي الدكتور باقازي المرات التي جاء فيها اللون الأسود عند المتنبي:" ورد ذكر اللون الأسود صريحًا ثلاثًا وعشرين مرة ووردت الإشارة إليه أربع عشرة مرة، أي في سبع وثلاثين مرة"[23].

وقد جاء السواد عند المتنبي بدلالات كثيرة، وهو يأتي مرة صريحًا، وأخرى ضمنيًا، يأتي مرة مدحًا، وتارةً هجاءً، ومرة يكون هذا السواد مستمدًا من الطبيعة ومرة من العنصر الحيواني، وأخرى من الإنساني، وقد يأتي دلالة على المظهر الاجتماعي.

---

(20) انظر الحرب في شعر المتنبي، د. محمود حسن أبو ناجي، 1/ 28، دار الشروق- جدة، ط2، 1400هـ- 1980م.

(21) التطلع القومي عند المتنبي، جاسم محسن عبود، ص64، دار الحرية للطباعة- بغداد، 1396- 1976.

(22) المرجع نفسه: ص 83.

(23) المرجع نفسه ص 85.

أما الألفاظ الدالة على السواد ضمنًا وليس صراحة:

فمنها: الغراب، العنبر، المسك، الكافور، الغداف، الظلام والظلمة، الليل، الدهماء، الأحداق،..... وغير ذلك.

- **دلالة المدح:**

قال في صباه يمدح أبا المنتصر شجاع بن محمد بن أوس الأزدي [24]:

ولقد بكيت على الشباب ولمتي مسودة ولماء وجهي رونق

ألاحظ هنا أن السواد في صباه كان دلالة على الشباب والنضارة والحيوية. فهل ظل سواد الشعر في نظره نضارة وشباب؟ أم تغير هذا المعنى مع مرور الوقت؟.

يقول مادحًا علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي[25]:

وتَضريبُ أعناقِ المُلوكِ وأن تُرَى لك الهبوات السود والعسكر المجر

"أي أنك تثير الغبار بحوافر الخيل لدى الطعان والنزال" [26]، وجعله الغبار أسودَ إنما هو دلالة على عظمته وكثرته كناية عن شجاعة الممدوح.

كما يقول في صباه مادحًا جعفر بن كيغلغ[27]:

نعج محاجره دعج نواظره حمر غفائره سود غدائره

" تمازج الألوان المتعددة هنا انعكاس لامتزاج عناصر الحياة المتناقضة في نفس المتنبي".[28] وألحظ في هذا البيت أنه لم يكن ثمة مشكلة بين المتنبي والسواد في صباه فهو ذكر: (دعج نواظره، سود غدائره).. فالأسود جاء في معرضِ المدح، " والإيحاء البعيد الرامز يتعلق بانعكاس تمازج عناصر الحياة المتصارعة في أعماق المتنبي والتي ذهب ضحية تصارعها وتناقضها في أعماقه". [29]

ويقول في مدحه - أيضًا- :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وهذا البيت عُدَّ من ابتكارات المتنبي، ومعنى البيت: إن فقت الناس بالفضل، وأنت منهم، فقد يكون بعض الشيء أفضل من جملته، كالمسك يفضل باقي دم الغزال. [30]

ويُلحظ أنه شبه سيف الدولة بالمسك، والمسك أسود، لكن الحديث هنا عن رائحته الزكية، فوجه الشبه: هو الرائحة والتفضيل، لكنه -لاحقًا- حين يمدح كافورًا يلح على ذكر لقبه، وذكر المسك، لأن وجه الشبه بينهما هو السواد.

كما أصبح اللون الأسود يدل على الشجاعة، والقوة، يقول عن أبي شجاع[31]:

يُحَدِّثُ مقلتيه النَّومُ عنّي فليتَ النومَ حدَّث عن نداكا

---

(24) الديوان، ص 40.

(25) الديوان، 285.

(26) المرجع نفسه، ص24.

(27) الديوان، ص 61.

(28) عنصر اللون في شعر المتنبي، ص 80.

(29) عنصر اللون في شعر المتنبي ص 81.

(30) الاتجاهات النقدية عند شراح ديوان المتنبي القدماء، د. عدنان عبيدات، ص 196، وزارة الثقافة الأردنية، 2002م،

(31) المرجع نفسه ص 803.

ويقول:

وذاك النشرُ عِرضُك كان مسكاً وذاك الشِّعرُ فِهْري والمداكا

النوم يدل على السواد، والظلمة، والمسك: لونه أسود، فاللون الأسود لم يكن هاجسًا كريهًا عند المتنبي، بل كان محببًا أحيانًا.

يقول في قصيدة أخرى مادحًا السواد[32]:

وما خضب الناس البياض لأنه قبيح، ولكن أحسن الشعر فاحمه

من قصيدة له في مدح سيف الدولة، ودلالة السواد هنا محببة، فهو يفضله على البياض، وهذا دلالة على أن المتنبي لم يتخذ موقفًا من اللون الأسود بعد؛ إذ لم يلتقِ بكافور حينها.

ويقول مادحًا كافور:

فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت بياضًا خلفها ومآقيا

"شبه الناس ببياض العين لأنه لا ينفتح به في النظر وجعل كافورا إنسان العين لأن الخاصية فيه،[33] قال الواحدي: جعله إنسان عين زمانه كناية عن سواد لونه، وأنه هو المعنى المقصود من الدهر وأبنائه وأن من سواه فضول لا حاجة بأحد إليهم، فإن البصر في سواد العين وما حوله جفون ومآقٍ لا معنى فيها"[34].

والمتنبي هنا يثبت عبقريته الفذة، فهو على الرغم من مدحه لكافور فإنه يلح على ذكر السواد ومدحه به، وكأنه يتوقع ألا ينال منه عطية وولاية ليقول له: عد إلى مدحياتي لك، وانظر بم مدحتك؟ مدحتك بعيبك، بسوادك، وأنت كالجاهل تفرح بهكذا مديح. ليخلد لنا التاريخ هذه المدائح المبطنة.

ويقول أيضًا:

وتنظر من سود صوادق في الدجى يرين بعيدات الشخوص كما هيا

" من قصيدة في مديح كافور، يقول: إن خيله ترى الأشباح البعيدة عنها كما هي- لصدق نظرها- في ظلمة الليل، والخيل توصف بحدة النظر. "[35]

يُلحظ هنا تتابع السواد، سواد العين، وسواد الليل، والممدوح كافور الأسود، السواد له أكثر من دلالة متباينة هنا، الحدة وبعد النظر، والظلمة.

وإنني أعجب من المتنبي كيف يجرؤ ويتجاسر ليذكر السواد هنا أمام شخص أسود، ومع ذلك يطمح بولاية منه، بل ربما كان إلحاح المتنبي على ذكر السواد أمام كافور – على الرغم مما قيل بأنه شجاعة منه- هو سبب عدم إعطاء كافور له، وكأن كافورًا أحس بهذه المدائح المبطنة بهجاء، فأراد أن يستبق الأحداث، ويبادر هو بالاحتيال ورفض الولاية.

ويقول في أخرى[36]:

أبا المسك أرجو منك نصرًا على العدا وآمل عزًا يخضب البيض بالدم

(32) الديوان، ص 379.

(33) عنصر اللون في شعر المتنبي ص 21.

(34)الديوان، ص 626.

(35) عنصر اللون في شعر المتنبي ص 25.

(36) الديوان ص 652.

"يقول: أرجو منك أن تنصرني على أعدائي بحسن رأيك وتؤتيني عزًا أتمكن به منهم وأخضب سيوفي بدمائهم".[37] ألحظ هنا أنه ذكر كنية كافور (أبا المسك)، والمسك أسود، لكنه يجيء في معرضِ المدح، وإن كان مدحًا مبطنًا بهجاء كما قال النقاد، لكن تبقى الدلالة الصريحة: المدح، وهذه الدلالة قبلَ أن يثور المتنبي على كافور.

ويشاكل الأبيات السابقة في مدحه للون الأسود في قصيدة يمدح بها كافورًا [38]:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

يقول: أزورهم والليل لي شفيع لأنه يسترني عنهم، وأنصرف وكأن الصبح يغري بي إذ يشهرني ويدلهم على مكاني.[39] ألحظ التقابل بين الليل والنهار، والسواد والبياض، "وسواد الليل يشفع للمتنبي عند من؟ عند عدوه؛ فما يحتاج العدو إلى هذه الشفاعة وما يرضاها، وما أظنه إلا كان يريد أن سواد الليل كان يخفيه عن الرقباء فيحميه منهم، وأن بياض الصبح كان يظهره للرقباء فيغريهم به ويعرضه لأذاهم."[40]

أستطيع أن ألحظ رمزًا في هذا البيت، فالقصيدة في مدح كافور، فما الداعي لأن يذكر السواد والبياض؟ بهذا التباين والتطابق؟ أليس ثمة ما يدعو للتساؤل؟ ما الدلالة التي يرمز إليها هذا السواد؟ وما دلالة البياض؟ لماذا يصرّ المتنبي على أن يشعر المتلقي بوجود صراع بين اللونين في هذه اللوحة؟

ألا يستدعي هذا الشك في أن سواد الليل يمثل كافورًا؟ ومتى كان هذا السواد شافعًا له؟ حينما كان راضٍ عن كافور، لم ينقلب عليه. وإذا كان سواد الليل هو كافور فإنه هو الحامي له في تلك الفترة، والبياض يمثل سيف الدولة أو أعداء المتنبي المتربصين به. أو كأن بياض الصبح أصبح مع الأعداء ضده، فيدلهم على مكانه. لأن المتنبي صار تابعًا لكافور الأسود!

وقوله[41]:

و أعلم قومًا خالفوني فشرقوا وغربت، أني قد ظفرت وخابوا

المتنبي هنا يتحدث عن أولئك الذي خالفوه، فشرقوا، لماذا جعل اتجاههم إلى الشرق؟ أليس الشرق يرمز إلى شروق الشمس والضياء والبياض؟ بينما هو غرّب، والغروب دائمًا يرتبط بالسواد والظلام والعتمة، فكأن أولئك اتجهوا إلى سيف الدولة، وهو اتجه إلى كافور متحديًا لهم، فظفر هوَ وخابوا، ويبدو أنه قال ذلك إبان رضاه عن كافور وطمعه في حظوته.

ويقول مادحًا الحسين بن إسحاق التنوخي[42]:

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى يرجى الحيا منه وتخشى الصواعق

السحاب الجون: السحاب الأسود، واللون الأسود هنا له أكثر من دلالة، فيدل حينًا على الخير، وحينًا على الغضب؛ إذ إن السحابة السوداء يكون فيها خيرٌ ومطرٌ، وفي الوقت نفسه يكون معها ضرر وهي الصواعق.

فاللون الأسود هنا حمل دلالتين متناقضتين متباينتين، لكنها دلالة مدحٍ للممدوح على كل حال.

يقول مادحًا عمر بن سليمان الشرابي[43]:

---

(37) عنصر اللون في شعر المتنبي، ص 20.

(38) المصدر نفسه، ص 634.

(39) انظر عنصر اللون في شعر المتنبي ص 15.

(40) انظر مع المتنبي، طه حسين، ص 301، دار المعارف، ط13.

(41) الديوان، ص 687.

(42) المصدر نفسه، ص122.

(43) الديوان، ص 177.

يشق بلاد الروم والنقع أبلق بأسيافه والجو بالنقع أدهم

"الأدهم: الأسود، لون غبار المعركة، يقول: يخترق بلاد الروم وغبار جيشه أبلق بأسيافه-يريد سواد الغبار ولمعان السيوف والجو من فوقه أسود بالغبار لأنه ليس فيه لمعان سيوف"[44]؛ فسواد الغبار وإن كان شيئا غير محبب للنفس، ولكنه في المعركة شيء يدعو للفخر، ليأتي هنا في دلالة مشاكلة لما سبق وهي دلالة المدح.

- **دلالة الذم:**

كما جاء اللون الأسود دالًا على المدح، فإنه يأتي دالًا على الانتقاص والذم. يشخص لنا الدكتور عبد الله باقازي في كتابه: (عنصر اللون في شعر المتنبي) دلالات اللون الأسود في حالة الانتقاص والذم، وكذلك امتزاج اللون الأسود بالألوان الأخرى وأنه غالبًا يكون ذمًا وانتقاصًا وكرهًا لهذا اللون؛ مما جعله يحاول تغييبه.

إن اللون الأسود كان يشكل هاجسًا يجلب التوتر للمتنبي، كما يشكل عامل خوف وترقب من زاوية المصير والمستقبل، فهو من هذه الزاوية أرقٌ، وترقب يلاحق المتنبي، كما يُلاحظ في امتزاج الأسود بالألوان الأخرى أن المتنبي كان يميل إلى تغييب اللون الأسود بمزجه بالألوان الأخرى، أو طغيانها عليه، وهذا يمثل محاولة المتنبي تغييب هذا اللون، كما أن اللون الأسود في امتزاجه بالألوان الأخرى كان يمثل عملية الصراع الذي كان يعيشه المتنبي في حياته، مصارعًا قوى الإحباط والفشل الذي يمثل الأسود هنا رمزها، ومن هنا جاءت محاولة المتنبي لتغليب الألوان الأخرى على الأسود ليقضي عليه نهائيًا، ويتخلص من القلق والخوف الملازم له، كما أن اللون الأسود كان يمثل العدو والمصير المجهول والخوف، لهذا ظهر في: كافور، والظلام،.. وغيرها، وكان موقف المتنبي واضحًا من كل ذلك: الكراهية، والتغييب...[45].

وتتباين دلالة السواد عند المتنبي في أبيات أخرى، فتتحول من دلالة محمودة إلى دلالة مذمومة، فللون الأسود في شعره دلالات عدة من أبرزها: القتامة، وتلك دلالة يمكن الخروج بها من ذكر المتنبي للون الأسود إشعارًا بقتامة الحياة، وسوداوية اللحظة حين يقول[46]:

كأن الجو قاسى من أقاسي فصار سواده فيه شحوبا

فأن يسودّ لون الجوّ ويصبح شاحبًا، فهذا يعني أن السواد باتَ شيئًا مخيفًا، كريهًا، وليلحظ القارئ هنا أن الشاعر لا يكره سواد الليل، بل يكره الشحوب الذي اعتراه.

فهذا يدل اللون الأسود على عدم الوضوح: وتلك ناحية ارتبطت بمفهوم القتامة الذي شكله اللون الأسود إحساسًا قاتمًا للمتنبي؛ ولهذا جهد المتنبي على تغييب اللون الأسود في غيره من الألوان، وتغليب الألوان الأخرى عليه، كما جهد المتنبي على تبديد حالة عدم الوضوح هذه من خلال تسليط اللون الأبيض على الأسود لإزالته؛ ومن هذه الزاوية يمدح سيف الدولة بتبديد ضياء أسلحته للظلام والعتمة مشاكلًا البيت السابق في دلالته[47]:

فقد مل ضوء الصبح مما تغيره ومل سواد الليل مما تزاحمه

ويقول[48]:

ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوب

(44) عنصر اللون في شعر المتنبي، ص 50.

(45) المرجع نفسه، ص 74.

(46) الديوان، ص 290.

(47) الديوان، ص 373.

(48) الديوان، ص 635.

ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شعر في الرأس مكذوب
ليت الحوادث باعتني التي أخذت مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي
فما الحداثة من حلمٍ بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

هو هنا يفضل الشيب الواضح الذي لم يخفه الخضاب، ويعترف بأنه يحتمل المشيب كارهًا له وراغبًا عنه، ثم هو بعد ذلك يتمنى العودة إلى الشباب، ويضحي في سبيل ذلك لو استطاع بكل ما أفاد من علم وحلم، ومن الذي زعم أن الحلم والعلم لا يأتيان إلا بالشيب والضعف وتقدم السن، بل يوجد العلم والحلم عند الشبان الذين لم يراعوا في شبابهم، كما يوجدان عند الشيّب الذين اشتروهما بما أضاعوا من القوة والأمل والنشاط.[49]

والمتنبي على رأس الشعراء الذين انحازوا إلى الدلالات الخبيئة التي لا تطولها تأملات النقاد،

فحين وصل المتنبي إلى كافور وقال أول قصيدة مدح فيه، فإنه لم يحسن اختيار مطلعه إذ قال[50]:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

هذا المطلع عُدّ من المطالع القبيحة، وقبح هذا الابتداء ينجم عن ذكر الداء والموت والمنايا، وهذا ما يبعث الطيرة في نفس المخاطب ولاسيما إذا كان أميراً أو ملكاً[51]، ولا غرابة أن يذكر الموت/السواد في مطلعه هذا؛ لأنه يمدح مكرهًا، فكأن الموت بسواده وظلمته هنا: كافور "الأسود"، وحسبك مرضًا أن تمدحه وتراه شافيًا لك، ومنقذًا.

كانت ألفاظ شعر المتنبي تحمل ما بداخله من كراهية وازدراء، وإن كان ظاهرها أحيانًا يوحي بأنها خلاف الحقيقة، وقد توقف كثير من النقاد والمحللين في عصره وحتى يومنا هذا عند معاني قصائده، وعلى رأسهم في عصره ابن جني، حيث كان يقرأ على المتنبي شعره في كافور، فيقف عند بيت في المدح، وهو ينطوي على هجاء، فيضحكان معًا[52]، ويدل على ذلك قوله في كافور[53]، وقد لقبه بالكركدن- وهو حيوان أسود ضخم -:

وشعر مدحت به الكركدن بين القريض وبين الرقى
وما كان ذلك مدحًا لــه ولكنــه كان هجو الورى

كما يدل اللون الأسود على السخرية والهجاء: ومن هذه الزاوية ارتبط اللون الأسود بالسخرية والهجاء وخاصة في كافور الذي كان لسواده نصيب كبير من تأكيد ارتباط اللون الأسود بالسخرية، يقول في هجاء كافور:

وإنك لا تدري ألونك أسود من الجهل أم قد صار أبيض صافيًا

"الأبيض هنا حلم يضعه المتنبي لكافور حتى يتحقق له به الكمال، مما يؤكد رقي الأبيض عند المتنبي"[54]، فيما يجيء اللون الأسود مباينًا للأبيض، قبيحًا دلالة على جهل المهجو.

ويقول في هجائه - أيضًا- في القصيدة نفسها:

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا

"ربات الحداد: السواد: مظهر اجتماعي"[55]، يرمز الحداد غالبًا إلى الكآبة والسواد، بل إن البكاء والحزن - أيضًا- يدلان على السواد؛ ليأتي اللون الأسود بشكلٍ سيئ، مذموم، كريه.

---

(49) مع المتنبي، طه حسين ص 302.
(50) الديوان، ص 623.
(51) المحور التجاوزي في شعر المتنبي، ص 83.
(52) انظر: المتنبي لمحمود شاكر، ص 73. (بتصرف)
(53) الديوان، ص 703.
(54) عنصر اللون في شعر المتنبي ص 70.
(55)المرجع نفسه، ص 51.

كما يقول في هجائه لكافور[56]:

وأسود مشفره نصفه يقال له أنت بدر الدجى

هذه سخرية لاذعة، وذلك بتغييب "الأسود الذي يمقته المتنبي، وإبراز الأبيض وتغليبه عليه."[57]، فمن هذه الزاوية يرتبط اللون الأسود بالسخرية والهجاء ويعمق كافور من هذه الناحية بعلاقته الوثيقة بالسواد، إذ كيف أن الناس يشبهون كافورا بالبدر وهو أسود، وكافور مغفل يصدقهم، ظهرت الآن كراهية المتنبي ومقته للون الأسود، بل واحتقاره له.

ويقول في هجاء كافور[58]:

وإنك لا تدري ألونك أسود من الجهل أم قد صار أبيض صافيا

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا

تظهر نكهة التهكم هنا بشراسة، "أليست هذه الأبيات تدفعنا دفعًا لمشاركة المتنبي مرارة الأسى؟ وهي عبارة عن انعكاسات نفسية لما وجده المتنبي من هذا الأسود"[59] مشاكلًا بذلك أبياته السابقة التي جعل فيها اللون الأسود لون مذموم كريه.

ويدل اللون الأسود - أيضًا- على الخوف، حيث كان اللون الأسود عذابا مستمرًا للمتنبي، ولهذا نرى المتنبي يغيب اللون الأسود ويغلب عليه ألوانًا أخرى تمهيدًا لإقصائه وتذويب أثره، ونتيجة لتشكيل اللون الأسود لحالة الخوف المستمر الذي يلاحق المتنبي في كل مكان من تنقلاته ورحلاته، وكأن اللون الأسود من هذا المنظور شبحًا قاتمًا يلاحق المتنبي، ولهذا يمتزج السواد هنا بالقتل وبعوامل التهديد عامة[60]:

أتاني وعيد الأدعياء وأنهم أعدوا لي السودان في كفر عاقب

كما يدل اللون الأسود على حالة الإحباط والدونية في شعر المتنبي: وتلك حالة يمكن رصدها من ارتباط اللون الأسود بحالة الإحباط والدونية حيث تأتي الأمور والأوضاع على عكس ما يتمناه المتنبي من الرفعة والعلو[61]:

وحبيت من خوص الركاب بأسود من دارش فغدوت أمشي راكبا

فالخف الأسود يصبح بديلًا هزيلًا للناقة، وبالتالي يعيش المتنبي الإحباط والدونية فبدلًا أن يعلو على الناقة يصبح الخف الأسود مطيته.[62]

كما يقول مادحًا شجاع بن محمد الطائي[63]:

فالليل حين قدمت فيها أبيض والصبح منذ رحلت عنها أسود

تناقض يكتنف البيت: الليل الأسود يجعله المتنبي أبيض بسبب قدوم الممدوح، وهذا يدل على عدم استحباب السواد؛ مما جعل الليل أبيض، بينما حين فارقه الممدوح أصبح النهار المعروف ببياضه أسود بسبب كآبته

(56) المصدر نفسه، ص 703.

(57) عنصر اللون في شعر المتنبي ص 67.

(58) الديوان، ص 629.

(59) الحرب في شعر المتنبي ص 57.

(60) المصدر نفسه ص 329.

(61) المصدر نفسه، ص 173.

(62) انظر عنصر اللون في شعر المتنبي، ص 92- 94.

(63) المصدر نفسه، ص 87.

وحزنه، أي أنه جعل اللون الأبيض غالبٌ على الأسود، فهو يدل على الفرح والحيوية، بينما الأسود كآبة وحزن، وفي هذا تشاكل وتباين دلالي.

يقول في مدح أبي الفضل محمد بن العميد[64]:

زانت الليل غرة القمر الطا لع فيه ولم يشنه سواده

فالليل الأسود لم يزينه إلا القمر الأبيض الطالع، فجعل الليل الأسود جميلًا لا لسواده، بل لطلوع القمر الأبيض فيه، وعلى الرغم من صغر حجم القمر بالنسبة إلى ظلام الليل فإنه استطاع أن ينير الدنيا كلها، وكأن سواد الليل يتوارى بسبب هذا الضياء، فهو يحاول إذن أن يجعل اللون الأبيض هو المسيطر على الأسود، وإن كان الأسود هو الأكثر، وهذا إن دل فإنما يدل على تفضيله البياض على السواد، فهو لم يذم السواد صراحةً لكنه فضل البياض عليه، مشاكلًا بذلك البيت السابق.

إذن ألحظ وجود اضطراب في تفضيل السواد أو احتقاره عند المتنبي، فهو مرة يفضله ومرة لا يمثل له شيئًا، وفي أحيان كثيرة – خاصة بعد ما حدث بينه وبين كافور- يمثل له هاجسًا غير محبب.

لأصل هنا إلى نتيجة مفادها أن المتنبي لم يكره اللون الأسود إلا بعد تعرفه على كافور أو بالأحرى حينما تأكد أنه لن ينال ولاية من كافور، فأصبح اللون الأسود يمثل له هاجسًا كريهًا، ويحاول تغييبه بشتى الطرق، لأنني لحظت أنه في ساعات صفائه ومديحه، يذكر اللون الأسود، كما في تفضيله لسواد الليل على بياضه حين زيارة الأحبة.

المبحث الثاني: التشاكل والتباين التركيبي:

يكثر المتنبي من استخدام الاستعارات في تضاعيف ديوانه، وعلى رأس هذه الاستعارات الاستعارة المكنية، لتوافر خاصية التشخيص والتجسيم فيها. [65]

كانت المعاني المحدثة في شعر المتنبي شواهد حاضرة على الدوام لتبيان ما انطوى عليه شعره بعامة من تميز، فشعره عامة ينم على مقدرة بالغة في التوليد، كما أنّ لديه طاقة لا تحد لتأسيس المعنى الذي وإن وجد شبيهاً عند متقدميه إلا أنّه قد تعلق به وصار من الرّسوم الفنية والموضوعية التي أوجدها.[66]

يقول:

الموت أقرب مخلبًا من بينكم والعيش أبعد منكم لا تبعدوا

والمعنى: أن الفراق صعب، وأن الحياة بعيدًا عن الأحبة تعني الموت، لكن ذكره المخلب في ألفاظ الغزل تدل على عمق تجربته الشعرية، واستطاع بقوة طبعه أن يعبر عن عمق محبته الشديدة، ومدى تأثره عند الوداع حتى أحس بقرب منيته. [67] والشاهد هنا: أنه استخدم الموت الدال على السواد والظلمة، في تشاكل تركيبي بين الموت والسواد، وكلاهما مخيفٌ، كريه.

وفي لوحةٍ أخرى يتشاكل اللون الأسود ويتباين والجمال/الحزن، يقول:

سفرت وبرقعها الفراق بصفرة سترت محاجرها ولم تك برقعا

فكأنها والدمع يقطر فوقها ذهب بسمطي لؤلؤ قد رصعا

كشفت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرت ليالي أربعا

---

(64) الديوان، ص 749.

(65) الاتجاهات النقدية عند شراح ديوان المتنبي القدماء، ص 408.

(66) المحور التجاوزي في شعر المتنبي، ص13

(67) الاتجاهات النقدية عند شراح ديوان المتنبي القدماء، ص 241، 242.

واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معا

تعبر هذه اللوحة عن معنيين متباينين هما: الجمال/ الحزن، تمثلا في استخدامه لصورٍ متعددة: البرقع/ المحاجر/ ليلة/ ليالي، في تأكيدٍ لحضور السواد والعتمة، ثم تتباين معهما صورة (القمر/ القمرين)، إيحاء بالبياض، وتحقق المنال.

ففي صورة (الليالي الأربع) تكثيف لصورة العتمة والسواد التي تحيط بالشاعر من جهاته الأربعة، ثم يظهر في اللوحة (القمرين) وهو إيذانٌ بتجديد الأمل وتبديد تلك العتمة والسواد.

إن الشاعر بقدر ما يوفر للوحة: (الحزن) من معاني الظلام والعتمة التي تتمثل في انتشار كمية من اللون الأسود، فإنه في الوقت نفسه يضفي عليها جانب إشراق وضياء من خلال اللون الفضي المتمثل في ضياء القمرين، ومن هذه الزاوية يتسق (الجمال) مع الإشراق والضياء، كما يتسق (الحزن) مع التظليل والظلام في اللوحة[68]، في صورتين متباينتين كل التباين.

يقول في مدح كافور[69]:

منى كن لي أن البياض خضاب فيخفى بتبييض القرون شباب

فهو حتى في حديثه عن الشيب يفضل الشيب وبياضه على الشباب وسواده، فيُلحظ مقته الشديد للأسود: الذي يمثله كافور، وعشقه للأبيض: الذي يمثله، مع أن القصيدة في مدح كافور، لكنه لم يأبه لذلك ليرمز لنفسه بالبياض ولكافور بالسواد. و"النتيجة: رغبة المتنبي في سيطرة اللون الأبيض وغلبته على السواد حتى لو اقتضى الأمر تمني الشيب في الشباب" [70]

ولأقف عند بعض الصور في القصيدة؛ لأن فيها دلالات رامزة تفيدنا في الحديث عن الصورة:

منى كن لي أن البياض خضاب فيخفى بتبييض القرون شباب
ليالي عند البيض فوداي فتنة وفخر وذاك الفخر عندي عاب
فكيف أذم اليوم ما كنت أشتهي وأدعو بما أشكوه حين أجاب
جلا اللون عن لون هدى كل مسلك كما انجاب عن ضوء النهار ضباب
وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه ولو أن ما في الوجه منه حراب
لها ظفر إن كل ظفر أعده وناب إذا لم يبق في الفم ناب
وإني لنجم تهتدي بي صحبتي إذا حال من دون النجوم سحاب

ثم يقول:

وبحر أبو المسك الخضم الذي له على كل بحر زخرة وعباب
تجاوز قدر المدح حتى كأنه بأحسن ما يثنى عليه يعاب
وغالبه الأعداء ثم عنوا له كما غالبت بيض السيوف رقاب
وأكثر ما تلقى أبا المسك بذلة إذا لم تصن إلا الحديد ثياب

إلى نهاية القصيدة..

(68) انظر: عنصر اللون في شعر المتنبي ص: 140، 141.

(69) الديوان، ص 680.

(70) عنصر اللون في شعر المتنبي، ص 68.

تمثل الأبيات الأولى صوت الأنا، ومن هنا جاء بالاستعارة التي تتواتر داخل النص بإلحاح، فالصورة جاءت مع مطلع القصيدة، حين كان في شبابه يفضل الشيب (الأبيض) ويجعله أمنية تخفي الشباب (اللون الأسود)؛ لكنه يتعجب كيف بعد أن تحققت أمنيته كرهها.

ثم تتوتر الصورة الاستعارية حين ينفي الشيب عنه بـ (نفس لا تشيب) في صورة متباينة مع الصورة الأولى، لتبرز الأنا الرافضة للبياض، الذي يمثله الواقع الحاليّ غير المرغوب به.

ثم تتداخل الثنائية المتباينة المتنبي/ وكافور، البياض (وإني لنجم)/ والسواد (أبا المسك) لتصبح هذه الأبيات صوتاً متداخلاً بينهما، متباينًا.

وللتقديم والتأخير أثرٌ داخل النص، فهي تسهم في تكثيف الصورة الشعرية؛ إذ إنها تزيد من إغراب الصورة، كقوله:

(كما انجاب عن لون النهار ضباب، وإني لنجم تهتدي بي صحبتي، إذا حال من دون النجوم سحاب، فيخفى بتبييض القرون شباب).

كما يُلحظ تأخر الفاعل في قوله: (غالبت بيض السيوف رقاب) دلالة على بطشِ الممدوح، وقد يكون يقصد ببيض السيوف نفسه التي يرمز لها بالبياض/ أو الحكماء العرب الذين لا ينتمي لهم كافور الأسود.

وفي مقام الهجاء والذم يستغرب المتنبي "من انقياد الجماهير لسلطة دخيلة، ولحكم مماليك لم يعرفوا الحرية يوما، فاختلط الأمر وصار المنقادين كالبهائم في خنوعهم"[(71)]، يقول في هجاء كافور:

كأن الأسود اللابي فيهم غراب حوله رخم وبوم

يشبه كافور الأسود بالغراب، "وهو طير خسيس كثير العيوب "[(72)]، لما للغراب صفة قبيحة عند العرب؛ إذ اقترن السواد كثيرًا به، وهذه من الصور المتشاكلة في التركيب والدلالة.

الخاتمة:

تحدثت في هذا البحث عن عنصر اللون الأسود في شعر المتنبي وكيف كانت دلالاته، وقسمت بحثي على هذا الأساس إلى مبحثين:

- المبحث الأول: التشاكل والتباين الدلالي
- المبحث الثاني: التشاكل والتباين التركيبي

واستنتجت مما سبق: أن كل حقبة تركت أثرها في شعر المتنبي، فكان السواد في السيفيات، لا يمثل هاجسًا كريهًا له، بل كان كغيره من الألوان، وربما كان أحيانًا محببًا له، فقد كان يذكره في ثنايا مدحه لسيف الدولة وغيره. أما في الحقبة التي كان فيها عند كافور، فقد كان يستخدم السواد كسلاحٍ ذي حدين، فهو حين يمدح كافورًا يذكر السواد ليؤكد أنه ليس عيبًا، ويأتي في ثنايا حديثه بالكثير من معاني السواد صريحة أو خفية، وحين بدأ في هجاء كافور استخدم السواد أداة تهكم يتهكم بها على كافور، وأنه كيف يكون هذا الأسود حاكمًا على عرب.

وكأنه بدأ يناقض نفسه في مدحه وهجائه، لكنه كشف في أبيات أن كل مدائحه لم تكن إلا هجاء في كافور، ليعود القارئ إلى تلك الأبيات ويستخلص الهجاء منها، وكيف جعل المتنبي السواد ودلالاته رمزًا، يستطيع القارئ الحاذق أن يستخرجه.

---

(71) التطلع القومي عند المتنبي، ص 99.

(72) عنصر اللون في شعر المتنبي، ص 25.

لذلك أرى أن السواد يتمثل عند المتنبي في ثلاث حالات:

1- لونٌ عاديٌ كغيره من الألوان، يستخدمه غالبًا في الوصف، حينما يصف المعارك، أو حين يمتدح شخصًا ما، فإنه يوظف السواد في الصورة الشعرية.

2- لونٌ صديق، ومقرب حميم، وذلك يتمثل في سواد الليل، حين يرافقه في أسفاره، وتنقلاته، أو حين زيارته لأحبائه.

3- لونٌ كريه، وعدو لدود، وذلك بعد مجيئه إلى كافور، وخضوعه له، وهو العربي ذو الأنفة الذي لا يخضع لغريب، ليتفاجأ بأن هذا الخضوع كان وبالًا عليه، ولم يستفد شيئًا من ذلك، ليكره كل ما هو أسود، بل بات هذا اللون يمثل هاجسًا مخيفًا، وعدوًا لدودًا.

لذا أوصي بتكثيف الدراسات عن عنصر اللون في الشعر، فهو مفهوم واسع، يستطيع الباحث أن يحلل من خلاله عدة ظواهر نفسية وشكلية وخيالية عند الشاعر.

و في الختام أشكر كل من ساعدني بلا استثناء، وأسأل الله لي وللجميع التوفيق والسداد.

ثبت المصادر والمراجع:

1- الاتجاهات النقدية عند شراح ديوان المتنبي القدماء، د. عدنان عبيدات، وزارة الثقافة الأردنية، 2002م.

2- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين الزِرِكْلي، ج1، دار العلم للملايين، ط15، 2002م.

3- التحليل السيمائي للخطاب الشعري " تحليل بالإجراء المستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي"، عبد الملك مرتاض، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005.

4- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ط3، 1992م،

5- التطلع القومي عند المتنبي، جاسم محسن عبود، دار الحرية للطباعة- بغداد، 1396-1976.

6- الحرب في شعر المتنبي، د. محمود حسن أبو ناجي، ج1، دار الشروق- جدة، ط2، 1400هـ - 1980م.

7- الدّلالة الشاردة وفضاء النّص " شعر المتنبي أنموذجاً"، الدكتور أحمد علي محمّد، مجلة جامعة تشرين للدراسات و البحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (27) العدد (1)2005.

8- دلالة الألوان في شعر المتنبي، عيسى متقى زاده وخاطره احمدي، مجلة إضاءات نقدية، السنة الرابعة – العدد الخامس عشر- خريف١٣٩٣ش / أيلول٢٠١٤م.

9- ديوان المتنبي شرح أبي الحسن علي الواحدي، ط/ برلين، أعادت طباعته مكتبة المثنى ببغداد 1861م.

10- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزْدِي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج1، دار الجيل، ط5، 1401هـ - 1981م.

11- عنصر اللون في شعر المتنبي، د. عبدالله باقازي، من إصدارات نادي القصيم الأدبي ببريدة، ط1، 1413هـ - 1993م.

12- المتنبي رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود شاكر، مطبعة المدني- مصر، 1407هـ- 1987م.

13- المحور التجاوزي في شعر المتنبي د. أحمد علي محمّد، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2006.

14- مع المتنبي، طه حسين، دار المعارف، ط13.

15- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية- بيروت، ط1، 1427هـ- 2006م.

16- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، حققه: الدكتور إحسان عباس،ج1، دار صادر/ بيروت. د.ت.
17- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي، 140/1،تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

The Blackness in Almutanabbi's Poetry

Abstract: This study examines the phenomenon of blackness، its causes، and its linguistic connotations in Almutanabbi's poetry.

The research follows the semiotic approach to poetic discourse analysis.

Results:

1- In Almutanabbi's poetry، the meanings of blackness vary from one era to another.

2- Almutanabbi made the black color a symbol of different meanings.

Keywords: Blackness, Almutanabbi, Arabic Poetry.